الفصل الثاني
القدس والنص التوراتي

يرى التاريخ اليهودي أن القدس كانت زمن داود وسليمان عاصمة لمملكة إسرائيلية دام وجودها ثمانين عاماً، واستمرت بعدهما بضع عشرات من السنين. وتدّعي الأدبيات اليهودية أن القدس لم ينازعهم في سيادتهم عليها أحد، وترى هذه الأدبيات أن الأرض الفلسطينية بما فيها القدس هي عطاء إلهي لا يجوز المس به، وأن المعبد الأول الذي شيّد في القدس هو هيكل سليمان الذي هو رمز الوجود اليهودي؛ ولهذا فإن نظرية الوجود الصهيوني تقوم على الرابط بين هذه المعطيات وبين تثبيت كون القدس عاصمة أبدية للكيان الصهيوني، مع الأخذ في الحسبان الأطماع الاستعمارية الاستيطانية لرواد الفكر الاستعماري الصهيوني الحديث.

والمدقق في النص التوراتي يرى أن كتّاب التوراة ركزوا على الوعد الإلهي المزعوم بمنح أرض كنعان لإبراهيم ونسلِه من بعده، دون إعطاء القدس أية أهمية تذكر.

ولم تعتبر القدس مكاناً مقدساً حتى جاء سليمان وبنى ما يسمى الهيكل. وكانت القدس حسب النصوص الموجودة في أسفار التوراة الأولى كبقية بقع الأرض التي هاجمتها من قبل القبائل البدوية الإسرائيلية، وبعد أن استتب الوضع لداود وسليمان نظر اليهود للقدس بالدرجة الأولى على أنها عاصمة سياسية لمملكة داود، ولم تُحط بهالة القدسية الإلهية؛ وهذا يعني أن التقديس جاء لرمز الكيان الاستيطاني وليس لرمز العلاقة بين الإله والإنسان.

وبعد أن بنى سليمان هيكله، حسب نص التوراة، أصبحت القدس ذات معنى مزدوج لديهم؛ فإضافة لكونها رمزاً لمركز الاحتلال اليهودي صارت مركزاً للقدسية التعبدية، على اعتبار أن الهيكل هو بيت سكن للرب بعد أن كان يسكن في الغيوم، حسب زعم التوراة.

فإذا عدنا إلى حقيقة التقديس اليهودي نرى أن المسألة لا تعدو كونها مسألة ارتباط جغرافي استيطاني بين اليهود والقدس، التي زُعِم أن هيكل سليمان أقيم فيها. أما أنّ هناك تقديساً إلهياً سبق التصور البشري للارتباط، فهذا لم يأت عليه كُتَّاب التوراة، ولم تنص عليه النصوص الأولى في العقيدة اليهودية.

لقد جاء في التوراة (وذهب الملك داود ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين، سكان الأرض، فكلموا داود قائلين: لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج. وأخذ داود حصن صهيون، وهي مدينة داود) سفر الملوك الأول.

ويأتي في المصادر الإسلامية واليهودية أن داود عندما أراد أن يعدّ مكاناً للعبادة اشترى بيدر أحد اليبوسيين، وقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سِفْر أخبار الأيام الأول، أن النبي جاد أمر داود بأمر الرب أن يقيم مذبحاً في بيدر شخص اسمه أرونه اليبوسي فاشترى البيدر وبنى المذبح).

وهذه النصوص التوراتية هي الأولى التي تشير إلى علاقة ما بين داود والقدس. ونحن نسأل منذ البداية أين المقدس الإلهي الذي تمتزج فيه الإرادة الإلهية بالاختيار الجغرافي؟ هل هناك تصور إلهي لجغرافية المكان الذي قصد إليه داود ليكون ذا علاقة مهمة به؟.

هذه النصوص، كما قلنا، هي الأولى التي تشير إلى علاقة ما بين داود والقدس. وتؤكد النصوص أن سكان الأرض الأصليين هم اليبوسيون، وقد تكلم داود معهم لأجل إقامة ما في المدينة فرفض سكان القدس، فذهب داود وبنى قصراً له على جبل سمّته التوراة جبل صهيون.

إننا نلاحظ إقحام كلمة صهيون على النص، وهذه الكلمة غير موجودة لا في الجغرافية ولا في التاريخ. هناك مدينة اسمها القدس أو مدينة السلام والجبال المحيطة بها معروفة أسماؤها لدى أصحابها الأصليين. وليس لكلمة صهيون أية علاقة بأي جبل في ظاهر المدينة. فهو اسم مصطنع مخترع أطلقه كتبة التوراة على جبل الزيتون، وهو يخص اليبوسيين ولا يخص أحداً سواهم.

وعلى الرغم من ذلك فإن النص التوراتي يختصر الزمن الطويل ببضع كلمات يقول: (أخذ داود جبل صهيون وهي مدينة داود) فكيف أصبح جبل صهيون مدينة داود؟ لا ندري.

والمعروف، حسب نص التوراة، أن داود أصبح ملكاً على بني إسرائيل وكان عمره لا يزيد على ثلاثين عاماً. ومعنى هذا أنه تملك قبل أن يوحى إليه، وقبل أن يبعث نبياً، فلما بلغ من العمر أربعين سنة آتاه الله النبوة، وأرسله إلى بني إسرائيل وأنزل عليه الزبور.

والمعروف أنه جعل قاعدة ملكه في أول تمليكه في جهات الخليل، ثم دخل بعض جبال القدس بعد حوالي سبع سنوات 990 ق.م، وتكون نبوته بعد دخوله القدس ولا نعلم متى جاءه الأمر ببناء المعبد، ويظهر أن ذلك كان خاصاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ سورة ص. فالمحراب قد يكون للعبادة وقد يكون صدر المجلس. فإن كان للعبادة فمعنى هذا أنه معبد خاص، بدليل قوله تعالى: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ أي تصعدوا سور المحراب ونزلوا إليه، ولو كان عاماً ما كان له سور يمنع الناس التعبد فيه[1]، ويعني هذا أن المسجد لم يكن المسجد الأقصى.

والمهم في ذلك كله أن المقدَّس الإلهي وحتى المقدَّس البشري لم يظهر إلى الآن؛ (أي حتى زمن داود). ليس هناك ارتباط ديني بين أتباع اليهودية وبين أي مكان مقدس، هناك ارتباط جغرافي طارىء ومغلف بالغموض، وهناك قصر لداود اعتبرته

(1) بيت المقدس. المسجد الأقصى محمد حسن شراب ص 58.

التوراة نواةً لتشكيل عاصمة للملك داود. ومن ثم جُيّر ذلك ليصبح قضية ارتباط بين اليهود أنفسهم وبين رمز لكيان جغرافي استيطاني ليس أكثر.

وتقول التوراة: (وفي أورشليم ملك داود ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهودا) ملوك أُوَل. ولنفترض أن هذا الكلام صحيح فأين المقدس الذي يرتبطون به ارتباطاً عقيدياً دينياً؟ ثم أين اليبوسيون من هذه المملكة؟ ما هي مقدساتهم؟ ما هو مقدسهم العقيدي الذي ينتمون إليه دينياً؟.

ماذا تشكل القدس أو ماذا يشكل قصر داود ومدينته في العقلية اليهودية الدينية؟ نعتقد أن التوراة نفسها أجابت عن هذا السؤال. فالارتباط ارتباط مجموعتين من الناس بمركز إداري يحكم الناس ويدير شؤونهم الدنيوية. المجموعة الأولى قبائل يهودا والمجموعة الثانية قبائل إسرائيل، تلك تستوطن الخليل وتلك تستوطن جبال القدس، ولا يجمعهما أي رابط مقدس. ولو كانت القدس تشكل لديهم جميعاً المركز القدسي الروحي الأوحد لتمثل ذلك بطقوس معقدة لها قوانينها، وقام بها داود والأتباع من الطرفين، لكن المقدس اليهودي كان إلى ذلك الوقت متمثلاً بتابوت العهد، أي بصندوق العهد الذي حفظت فيه بقية تعاليم التوراة، وبقية مما وصى به موسى وهارون أتباع الموسوية الأولى.

وإذا انطلقنا تاريخياً ـ حسب النص التوراتي تمثل لنا سليمان ملكاً بعد داود. وتمثل لنا ما قالته التوراة عن بناء سليمان هيكلاً للرب يسكن فيه بعد أن كان يسكن في الضباب وفوق الغيوم، لن نناقش هنا المسائل العقيدية المتعلقة بتجسيد الإله وصفاته كما تصورها بنو إسرائيل، بل الذي يستوقفنا هنا هو الهيكل نفسه. هل حقاً هناك هيكل بناه سليمان؟ وإذا افترضنا عبثاً أن هيكلاً ما، بناه سليمان، فهل يمثل مقدساً إلهياً خاصاً باليهود يبيح لهم الاستيلاء على القدس وجعلها عاصمة أبدية للكيان الصهيوني؟

تصف التوراة هيكل سليمان بشكل دقيق حتى إنها لم تترك شيئاً يخصه إلا ذكرته خارجياً وداخلياً.

ماذا تقول الحقائق التاريخية؟

ترى التوراة أن هيكل سليمان بني على أرض سهلية في القدس. وعندما نقارن المساحة التي ذكرتها التوراة والتي بنى عليها سليمان هيكله، مع المساحة الجغرافية الحقيقية لمنطقة القدس نجد كما وجد علماء الآثار أنه لا توجد بقعة في جبال القدس تتسع لهذا الهيكل؛ أي إن المساحة المزعومة في التوراة لا تتطابق البتة مع المساحة الجغرافية للأماكن الفارغة من العمران في القدس.

وترى التوراة أن الهيكل بني من الحجارة وخشب الأرز المستورد من لبنان، وأن الذين شاركوا في بنائه 30 ألفاً من المسخرين العبيد.

يقول النص التوراتي: (والبيت في بنائه بني بحجارة صحيحة مقتلعة، ولم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد) الإصحاح 6. سفر الملوك الأول.

فالعبيد المسخرون وهم ثلاثون ألفاً اقتلعوا الحجارة اللازمة للبناء، وهي صحيحة ولم يستخدموا في قلعها أداة للنحت أو معولاً أو أية أداة من حديد.

ما الذي يعنيه هذا النص؟ ماذا يفيدنا إذا ما وضعناه في سياق علم الآثار والجيولوجيا؟ علم الآثار يقول إن مثل هذه الحجارة لا تكون بهذا الشكل وهذه الكثافة، إلا إذا كانت مشيدة في أبنية ضخمة سبق وجودها وجود أتباع سليمان، والطبقات الصخرية والجيولوجية تدل بشكل قاطع على أن الحجارة التي افترضوا أن سليمان بنى هيكله بها ليست بعيدة العهد عن عصر سليمان. ومن المسلمات الآثارية أن الأقوام التي تخلف الأقوام السابقة عليها، تستخدم حجارة بيوتها في بناء بيوت جديدة. ولكن الواقع يقول، وهذا أيضاً ما نصت عليه التوراة، إن اليبوسيين العرب سكان القدس الأصليين لم يتركوا بيوتهم وقصورهم.

لكن السؤال الذي يعيدنا إلى جوهر الموضوع هو إذا كان هذا الهيكل المفترض قد بني فعلاً فما علاقة المقدس الإلهي به؟. كان من الممكن أن يختار سليمان أي مكان ليبني هيكله عليه بما أن اختيار المكان هنا هو اختيار بشري إنساني وليس اختياراً إلهياً. نحن نعلم أن المصادر الإسلامية تحدثت عن بناء إبراهيم الكعبة وأن الكعبة موجودة قبل إبراهيم بزمن طويل. إلا أن الله سبحانه أوحى لإبراهيم بمكان الكعبة المدفونة تحت رمال الصحراء لكي

يعمرها . والكعبة اختارها الله لتكون بيت الله الحرام وليست هي مكاناً اختاره إبراهيم . إذاً هي خاصة بالاختيار الرباني ، وإبراهيم ليس سوى منفذ لاختيار الله ، بينما سليمان يختار بناء الهيكل دون تدخل إلهي أو اختيار رباني .

على أية حال فإن الافتراض بوجود ما يسمى هيكل سليمان يستدعي التوقف عند كثير من التساؤلات أولاً ، والتوقف عند ما قاله علماء الآثار ثانياً .

1 ـ قالت التوراة إن 30 ألفاً من العبيد سُخّروا في بناء الهيكل ، ولم يشارك في بنائه أي فرد من بني إسرائيل .

من أين جلب سليمان ثلاثين ألف عبد ليبنوا الهيكل؟

قالت التوراة إن سليمان استورد خشب الأرز من لبنان لبناء الهيكل ، وقالت إن الهيكل بني من الحجارة . فإذا كان بني من الحجارة فما حاجتهم لخشب الأرز؟ وإذا قيل إنه استخدم في سقف الهيكل فإن الشجر الموجود في فلسطين يكفي لسقفه ولا حاجة لاستيراد الأرز من لبنان .

وتدلنا المعطيات بعد سليمان أنه عندما خُرب هذا الهيكل ودمر لم يبق منه أثر . وقد دمرت المباني جمعيها التي كانت لسليمان وأتباعه ، الموجودة في منطقة القدس أثناء الغزو البابلي عام 587 ق . م . وتحاول سلطات العدو الصهيوني إيجاد أي أثر يدل على وجود الهيكل ، وذلك منذ أكثر من خمسين عاماً دون جدوى .

أما علم الآثار فيقول :

كان يجب أن يكون هيكل سليمان والقصور خارج مدينة داود ، لأن حجم البناء الذي تصوره يتطلب المساحة المبنية بأكملها ، ولم يكن التوسع نحو الشمال صعباً لأن السلسلة الشرقية كانت باتجاه التلال ودون فاصل ، ولكن اعترضت البناء بعض الصعوبات الطبيعية[1] .

وإذا كان الهيكل بني حقاً فإننا سنرى أن سليمان ، وحسب النص التوراتي ، استخدم هذا الهيكل لأغراض أخرى غير الأغراض التي تتعلق بعقيدة التوحيد .

(1) كاثلين كاينون الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة ص 66 .

فسليمان، حسب قول التوراة، يتزوج من ألف امرأة سبع مئة منهن من السيدات، وثلاثمائة من السراري (الإماء). وقد اعترفت التوراة أن نساءه أملنَ قلبه باتجاه آلهتهن فبنى لكل منهن معبداً أو أقام صنماً لتعبده زوجاته، وذلك في وسط الهيكل. جاء في سفر الملوك الإصحاح (11) (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات.. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، وذهب وراء عشتروت وملكوم وكموش. وبنى مرتفعة لهن على الجبل الذي تجاه أورشليم، وهكذا عمل لجميع نسائه اللواتي كن يوقدنَ ويذبحن لآلهتهن).

واضح أن هيكل سليمان لم يكن ذا علاقة بتقديس الله، بما أن فيه ألف صنم على عدد نسائه. وإذا عدنا إلى أسفار التوراة الأولى نرى أن سفر التكوين، وهو يتألف من خمسين إصحاحاً، لا يأتي على ذكر للقدس، بل يقتصر في حديثه على الوعد المقطوع لإبراهيم ونسلِهِ بأن يمتلك أرض كنعان. وفي سفر الخروج كذلك ليس للقدس وجود في تعاليم النبي موسى أو مسيرة تنقله حتى موته.

فموسى الذي يعتبر صاحب الشريعة التوراتية لم يكن له توجه محدد نحو القدس على اعتبارها مكاناً مقدساً لليهود. وبدت العقيدة اليهودية في أسفار موسى الخمسة مفرغة من المعبد الرمز والأساسي الثابت. فهي تعاليم نظرية لا ترتبط بالجغرافيا، وهذا طبيعي؛ لأن الخروج الموسوي من مصر، والتنقل عبر الصحراء الشاسعة في سيناء لا يحتمل ثبات الجغرافية المكانية المقدسة، فليس هناك مقدس بمعنى المعبد، وهناك فقط تابوت العهد الذي سبق أن أشرنا إليه في صفحات سابقة.

فإذا كانت أسفار موسى الخمسة، وهي المعتمدة عند فئات يهودية كثيرة دون غيرها من أسفار التوراة، لا تأتي على ذكر القدس لا من قريب ولا من بعيد، فكيف يمكن أن يربط اليهودي القدس بالمقدس اليهودي؟

في هذه الحال يستطيع أي باحث أو مدقق بالمدونات التوراتية أن يجزم أن المقدس التوراتي لا يربط بين الإنسان وبين المنحة الإلهية للتقديس. إننا نعترف وبكل صدق بوجود ما يسمى تابوت العهد، واعترافنا يستند إلى آيات القرآن الكريم الدالة على وجوده. أما ما يتعلق بالعلاقة بين القدس كجغرافيا أو تقديس إلهي، فلا اليهودية تقنع ولا النصوص التوراتية في أسفار موسى الخمسة تشير إلى وجود القدس في العقل اليهودي أو العقيدة اليهودية.

إذاً ما العلاقة بين التوراة والقدس؟

حسب النصوص التوراتية فإن العبرانيين يتسللون إلى فلسطين منذ يوشع بن نون، أي بعد وفاة موسى، وظلوا يتسللون ويتجمعون في بعض جبال فلسطين حتى زمن الملك داود. والفترة الزمنية الفاصلة بين موت موسى وملك داود هو مائتا عام حسب قول التوراة أو مئتان وخمسون عاماً على الأكثر. ومنذ موسى ومروراً بيوشع وبعصر القضاة، وحتى شاؤول وداود لم يظهر لليهود أي مقدس بالمعنى الجغرافي، على الرغم من احتلالهم بعض أراضي فلسطين. ولكنهم ظلوا يحملون تابوت العهد وينقلونه من مكان إلى آخر؛ لأنهم يعتبرونه مصدر كتاب موسى والبقية الباقية من تعاليمه.

- **كيف تطور مفهوم تقديس القدس عند اليهود؟**

لقد تحدثت التوراة عن بناء سليمان للهيكل، ووصفته وصفاً دقيقاً، وصار بالنسبة لأتباع اليهودية مركزاً للملك من جهة، وللعبادة من جهة أخرى. وتحدثت أيضاً عن الأصنام والتماثيل التي صنعها الحرفيون لسليمان، ووضعها في الهيكل، إضافة لما قالته عن نساء سليمان اللواتي بقين يعبدن آلهتهن الوثنية.

ومع موت سليمان انقسمت المملكة الصغيرة التي كان يحكمها إلى مملكتين: إحداهما في القدس، والأخرى في السامرة. وهذا الانقسام أدى بالتالي إلى انقسام في العقائد، فمملكة السامرة وسكانها انقطعت عن المعبد المسمى بالهيكل، وكان عليها أن تبني معبداً رئيسياً لها تستغني فيه عن الهيكل، وهذا يعني أنْ لا ارتباط بين

مملكة السامرة والمقدس الذي اصطنعوه في القدس، وكان يمكن الاستغناء عنه بسهولة وقد أصبح (يربعام) ملكاً على المملكة الشمالية، وقرب إليه أنبياء فكانوا يأكلون على مائدته ويحصلون على أعطيات معينة.

وعندما تسلم الملك المدعو آخاب ـ عام 850 ـ 869 ق. م كان في مملكة (إسرائيل) إضافة لأنبياء يهوه أنبياء البعل ـ والبعل هو الإله الرئيسي بعد إيل عند الكنعانيين، وهؤلاء الأنبياء أربعمائة وخمسون نبياً، يأكلون الطعام على مائدة إيزابيل، وهي زوجة الملك (آخاب) وكانت كنعانية وهي ابنة ملك صور، وقد أصبحت حامية لعبادة بعل وعشتروت في مملكة (إسرائيل).

وقد بنى آخاب معبداً ضخماً في السامرة للإله بعل، إضافة لعدد كبير من المذابح للإلهين بعل وعشتروت في الغابات المقدسة التي تسمى (السواري) وكان يخدمها كهنة بعل وأنبياؤه.

وتورد التوراة أن (إيزابيل) أمرت بهدم جميع المعابد والمذابح المرتبطة بالإله اليهودي يهوه، وقتلت كل الكهنة اليهود، وقد هرب من بينهم النبي إيليا ـ إلياس ـ وهو من مستوطني جلعاد، وهي مقاطعة تقع في الشرق الأقصى للملكة الشمالية حسب نص قاموس الكتاب المقدس. وقد ورد في النص التوراتي (فالآن أرسل وأجمع كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين، وأنبياء السواري أربع المئة والذين يأكلون على مائدة إيزابيل) وهذا ما يشير إلى أن في جبل الكرمل معبداً جرت فيه المحاورة بين إيليا وأنبياء البعل، وحسب نص التوراة فقد انتصر عليهم بعد أن أظهر معجزته، وبعد ذلك يقبل إيليا على العمل فيعيد تشييد مذبح يهوه المهدم ويحفر حوله قناة، وعندما رأى آخاب والملكة إيزابيل كل ما جرى على جبل الكرمل وكيف أن إيليا قتل جميع الأنبياء بالسيف، أرسلت الملكة الحانقة رسولاً إلى إيليا تقول: (هكذا تفعل الآلهة وهكذا تزيد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت غداً فيضطر إيليا للهرب مجدداً إلى يهودا هذه المرة ويختبىء في جبل حوريب) 1 ملوك إصحاح 19.

ويتضح من ذلك أن المعابد كانت منتشرة في فلسطين ويطغى على طابعها الشكل الوثني، ولم تشر التوراة إلى علاقة ما بين النبي إيليا وبين القدس. وإشارة إلى المعبد المرتبط بهذا النبي، فما زال إلى الآن ديرٌ يقع على جبل الكرمل يطلق عليه دير مار إلياس، ويشير سكان المنطقة إلى المغارة التي حدثت عندها معجزة النار التي أكلت لحم الثور الذي ذبحه النبي إلياس.

وبعد موت آخاب تولى العرش ابنه أخزيا، وتقول التوراة إنه عندما مرض أرسل رسلاً وقال لهم: اذهبوا اسألوا (بعل زبون) إله عقرون إن كنت أبرأ من هذا المرض، وعرف ذلك النبي إيليا من ملاك يهوه الذي ظهر له وقال: قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم: أليس لأنه لا يوجد إله في إسرائيل تذهبون لتسألوا بعل زبون إله عقرون.

وقد استمر الصراع بين يهوه وبعل ليس فقط في مملكة إسرائيل بل في يهودا أيضاً[1].

وهناك إشارات عارضة إلى وجود معبد في (أورشليم)، لكنها لم تعط أية أهمية لمكان التعبد المتميز، تقول التوراة: (فترأس المؤامرة ضدها الكاهن الأول في معبد أورشليم يهيادا ع) وتقول في نفس السياق: (ودخل جميع شعب الأرض إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسروا تماثيله تماماً) (إلا أن المرتفعات لم تنتزع بل كان الشعب لا يزالون يذبحون ويوقدون على المرتفعات).

وفي عام 640 ق. م اعتلى العرش في يهودا الملك يوشيا بن آمون الذي كان ابن ثماني سنوات وقد دخل ـ حسب نص التوراة ـ أورشليم ـ وتحديداً إلى معبد يهوه، وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل يهوه جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم في حقول قدرون. . والمرتفعات التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتروت رجاسة الصيدونيين، ولكموش رجاسة المؤابيين، وللملكوم كراهة بني عمون نجّسها

(1) أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ص 61 ترجمة الدكتور آحو يوسف.

الملك، وكسر التماثيل وقطع السواري، وكذا جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة أزالها يوشيا، وذبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على المذابح.

نرى من خلال مجريات الأحداث أن بني إسرائيل أثناء انقسامهم تبنوا عدة معبودات وثنية إلى جانب علاقتهم بإلههم القومي يهوه. ونرى أن المعابد التي كرست لعبادة الآلهة المتعددة كانت ذات أهمية بالغة خاصة في زمن آخاب وامرأته إيزابيل. وكان المعبد الرئيسي في القدس يدعى بيت الرب، ولم يكن في تلك الفترة سوى معبد يشابه بقية المعابد المنتشرة في أماكن وجود بني إسرائيل حتى إن المعبد الذي أقامه آخاب في السامرة كان ذا أهمية كبرى. ويبقى الوضع على حالة بالنسبة للمعابد التي أنشأها اليهود في القدس ونابلس والكرمل وبقية المناطق التي احتلها اليهود في فلسطين. ومع اشتداد الصراع بين مملكتي اليهود زحفت جيوش الشرق باتجاه الشام تحتل مدنه ومناطقه الواسعة.

ففي عام 605 ق. م زحف بختنصر البابلي إلى أن وصل القدس وأخضع ملكها (يهويا قيم) وخضعت المملكة اليهودية للبابليين. ولما ثار يهويا قيم على أسياده دخل بختنصر وجيشه القدس وعين مكانه أخاه يهويا كين (598 ـ 597 ق. م) وفي أثناء ملكه القصير حاصر نبوخذ نصر (أورشليم وأخذ الملك مع عائلته ورؤساء اليهود وبعض خزائن ما يسمى بيت الرب والمدينة إلى بابل).

قال مؤلف جغرافية الكتاب وتاريخه «وسقطت القدس نفسها في السنة 597 ق. م أمام جيش نبوخذ نصر، ونقل الملك يهوياكين ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من سراة القوم وصناع الأيدي والمجموع ما بين 30 ـ 40 ألفاً إلى بلاد بابل، وكان غرض نبوخذ نصر أن يخلي البلاد من قوادها وكل الذين بإمكانهم أن يوقدوا الثورة، والذين بقوا من يهودا ملك عليهم (صدقيا) أحد أبناء يوشيا 597 ـ 568 ق. م (القدس الدباغ ص 52) وفي أواخر حكمه تمرد على سيده فأرسل بختنصر جيشه إلى القدس فأسر الملك وسيق إلى بابل وخُربت القدس وجعلت أكواماً من الأنقاض وانتهت دويلة يهودا».

وفي سنة 539 ق. م تمكن كورش ملك الفرس من الاستيلاء على بابل، وتم له الاستيلاء على بلاد الشام، وقد ساعده اليهود حين فتحِه بابل فالتمسوا منه أن يذهبوا إلى القدس فوافقهم على طلبهم، فعاد قسم منهم وبقي معظمهم.

وفي سنة 332 ق. م استولى الإسكندر المقدوني على فلسطين ودخل القدس، ولكن الفوضى حلت بالبلاد بعد موته وانقسام إمبراطوريته إلى مملكتين.

وفي سنة 63 ق. م استولى القائد الروماني بومبي على القدس، وفي سنة 37ق. م نصَّب الرومان هيرودس الآدومي ملكاً على الجليل والقدس فظل يحكمها باسم الرومان حتى السنة الرابعة الميلادية، وفي زمانه ولد السيد المسيح عليه السلام. وفي سنة 26م تولى بيلاطس حكم القدس فكان بداية للحكم الروماني المباشر. وفي زمن هذا الوالي حدثت وقائع عيسى عليه السلام[1]. وخلال هذه السنوات الطوال؛ أي منذ دخول البابليين أرض فلسطين حتى المؤامرة على السيد المسيح تطور مفهوم المقدس عند اليهود تطوراً ملحوظاً. فمن الطبيعي أن يحصل مثل هذا التطور لأن العقيدة اليهودية جرى عليها تعديلات كثيرة بدءاً من النظرة إلى الذات الإلهية وانتهاءً بالمعاملات والعبادات التي أقرها التلمود البابلي.

وقد وجد في هذه الفترات أنبياء يهود وشخصيات قيادية على المستوى الديني كان لها الأثر الأول في تطور المفهوم العقيدي اليهودي تجاه القدس.

أما القدس فقد اعتبرها أحد أنبيائهم المدعو ميخا مركز الخطايا. وتنبّأ بأنها ستحال إلى كومة أنقاض، وقد توقفت عبارة يهوه في القدس في زمن الملك (آحاز) ثم تجددت، ولكن اليهود ظلوا يذبحون قرابينهم في السواري المقدسة. ولذلك يرد في سفر ميخا أن الرب سيعاقب يهوذا وإسرائيل عقاباً رهيباً وسينزل بهما النهب والموت، وسوف تتحول السامرة وأورشليم إلى كومتين من أنقاض. ويتنبأ ميخا بأن أورشليم بسكانها سوف تُسبى إلى بابل. وفي زمن الملك منسّى أي عام 655 ـ 671 أدخل اليهود إلى معابدهم عبادة الأجرام السماوية تقليداً للآشوريين، واعتبروا هذه الأجرام جند

(1) محمد حسن شراب ـ بيت المقدس والمسجد الأقصى ص 60 ـ 61.

السماء، وكان معبد القدس يغص برموز هذه المعبودات، وقد أعيد بناء المرتفعات المقدسة في الجبال أيضاً، وسجد اليهود لكل جند السماء وعبدوها، وقد انتعشت من جديد المعبودات الكنعانية وقد جدد منسّى تقديم القرابين للآلهة المتعددة لكي يسترحمها، ويقول كتاب الملوك: إن منسّى نفسه عافَ وتفاءل واستخدم جاناً وتوابع وأكثر من عمل الشر الذي يغضب يهوه، وكان يسترضي آلهة أخرى بما فيها الأجنبية.

وفي زمن الملك يوشيا ـ في سفر الملوك الثاني ـ ادعى حلقيا كاهن معبد القدس أنه عثر على سفر الشريعة، فأخذه الملك يوشيا وقرأه على عامة الشعب وجاء فيه: (هكذا قال يهوه هأنذا جالب شراً على هذا الموضع وعلى سكانه، من أجل أنهم تركوني وأوقدوا لآلهة أخرى لكي يغيظوني بكل عمل أيديهم، فيشتعل غضبي على هذا الموضع ولا ينطفئ) 22: 5 ـ 20.

بعد ذلك توجّه يوشيا إلى معبد يهوه بأورشليم، حيث جميع رجال يهودا وكل سكان أورشليم معه والكهنة والأنبياء وكل الشعب من الصغير إلى الكبير، وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت يهوه وقطع عهداً أمام يهوه للذهاب وراء يهوه..

بعد ذلك أمر يوشيا الكاهن حلقيا والكهنة وحراس المعبد أن يُخْرِجوا من المعبد الآنية المصنوعة للبعل والسارية ولكل أجناد السماء وأحرقها. ويقول السفر إن يوشيا أباد الخيل التي أعطاها ملوك يهودا للشمس عند مدخل بيت يهوه ومركبات الشمس أحرقها بالنار، والمرتفعات التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتروت رجاسة الصيدونيين ولكموش رجاسة المؤابيين وللملكوم كراهة بني عمون نجّسها الملك، وكسّر التماثيل وقطع السواري، وكذا جميع بيوت المرتفعات التي في مدن السامرة أزالها يوشيا وذبح جميع كهنة المرتفعات التي هناك على المذابح.

في زمن الملك يوشيا يحاول الكهنة بمعاونة الملك نفسه أن يعيدوا الاعتبار لمعبد يهوه في القدس، وبطريقة ما حرَّض الملكُ الكهنةَ ليصحح مسيرة الارتباط العقيدي بين اليهود ومعبدهم الذي يمثل رمز سلطتهم وليس رمز تقديسهم. والسبب في ذلك

أن الآشوريين آنذاك أخذوا بالانهيار أمام البابليين والفرس، فانتهز اليهود الفرصة ليثوروا على معبوداتٍ تبنوها إثر الضغط الآشوري عليهم. ويرد أن يوشيا هدم المعبد اليهودي في السامرة؛ وهذا يعني محاولة القضاء على كلّ المعابد التي تنافس المعبد الرئيسي ليهوه في القدس. لقد شعر اليهود أن هذه المدينة مهددة من قبل القوى المحيطة، فحتى يزداد الربط السياسي بينهم وبين القدس قام يوشيا بمحاولة الإصلاح الديني التي أشرنا إليها.

وسفر إرميا ومراثيه من أكثر أسفار التوراة ارتباطاً بالحديث عن العقيدة اليهودية ومعابدها. فإرميا نفسه نبي سياسي يجمع بين الرؤية السياسية والدينية، ويظهر أنه كان ناقماً نقمة شديدة على التعددية العقيدية لدى اليهود.

يرد في سفر إرميا: (أما ترى ماذا يعملون في مدن يهودا وفي شوارع أورشليم. الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات لكي يغيظوني) 7: 17 ـ 18. ولأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا وبعدد شوارع أورشليم وضعتم مذابح للخزي.. مذابح للتبخير للبعل 13: 11.

ولإرميا صوت تنبؤي بشأن القدس والمعبد المرتبط بيهوه فيقول: (ويكون هذا البيت وتكون هذه المدينة خربة بلا ساكن). وكانت هذه النبوءة في السنوات الأولى من حكم يهويا قيم وداخل المعبد في أورشليم ذاته.

وفي زمن إرميا سبي اليهود إلى بابل وظل هو في فلسطين حسب اختياره، ومرة أخرى يجري صراع بين إرميا والكهنة ويوضع على إثر الخلاف في زنزانة ثم يهاجم البابليون مرة أخرى القدس، وفي تموز عام 586 اخترقت أسوار القدس واحتلت المدينة وأحرق معبد يهوه.

إلى هذا الحد يمكن أن نرى أن الأنبياء الذين عاصروا انهيار العبادات اليهودية كانوا، بشكل إجمالي، غاضبين على اليهود. ولم يكن معبد القدس سوى معبد للآلهة الوثنية المأخوذة من البابليين والكنعانيين. ويرى القارئ في أسفار الملوك الأول والثاني وما بعدهما أن صفة المعبد أخذت أو ظلت تأخذ طابع الربط مع إلهة أو إله

قومي خاص جداً وهو الإله يـهوه حسب ما ورد في تلك الأسفار، إضافة لما كان للآلهة الوثنية من أهمية في معبودات اليهود.

إن هذا المعبد الذي سمي بيت الرب، والذي يقول اليهود إنه هيكل سليمان لـم يكن حتى هـذا الوقت سوى معبد وثني يجمع الاعتراف بيهوه والاعتراف الآخر بالآلهة الوثنية المنتشرة في المحيط الفلسطيني واللبناني.

ونرى أن صراعاً دموياً حاداً كان يجري باستمرار بين كهنة المعبد ذوي المصلحة المالية وبين بعض الأنبياء المصلحين الذين ينادون دوماً بالعودة إلى يهوه، وتنظيف بيت الرب من أرجاس الوثنية. وعلى الغالب كان المنتصرون كهنة المعبد الوثني الذين وجدوا دعماً قوياً من ملوك اليهود، وواضح أن المعتقدات اليهودية والمعبودات كانت ذات علاقة وطيدة بالوضع السياسي والعلاقات مع القوى الكبيرة في المنطقة كالبابليين والفراعنة. وواضح أيضاً أن نظرة الملوك اليهود وكهنة المعبد كانت تنطلق في تعدد عبادتها الوثنية من خلال قوة العلاقة أو ضعفها مع تلك القوى الكبرى آنذاك. لقد غيّبت عبادة يهوه طوال فترة وجود ما يسمى الهيكل، على الرغم من أن يهوه بنظر اليهود هو إله خاص بهم لا يشاركهم في عبادته أحد. ودوماً كانوا على علاقة وطيدة بالآلهة الوثنية الرامزة لمعبودات الشعوب المجاورة والأصلية في المنطقة التي احتلها اليهود.

والواقع أنه لو قارنا بين ما جاء في التوراة العبرانية وما جاء في التوراة السامرية لوجدنا أن المعبد المقدس في الرؤيتين هو مكان متعدد الوجوه متعدد الجغرافيا.

فيرد في التوراة العبرانية (حين تعبرون الأردن هذه الحجارة التي أنا أوصيكم بها اليوم في جبل عيبال وتكلسها بالكلس. تثنية 4: 27. وفي التوراة السامرية بدل كلمة عيبال تأتي كلمة جرزيم وهما جبلان في أرض فلسطين عبر نهر الأردن. ومعنى النص أن يبني بنو إسرائيل مسجداً مقدساً في أرض كنعان إما في عيبال أو في جرزيم ويكلسوه بالكلس، وأن يجعلوا السطح أملس مستوياً للتمكن من كتابة الشريعة عليه.

يقول مفسرو التوراة: وغاية تشييد الحجارة أن يجعل سطحها أملس مستوياً للتمكن من كتابة الشريعة عليها. ولم يذكر ما ترجم بالشيد هنا إلا في أشعياء 12: 33 وعاموس 2: 2 وترجم في كل من أشعياء وعاموس بالكلس.

ويهود القدس يعتبرون عيبال مكاناً مقدساً، وقد زعموا أنهم بنوا عليه هيكل سليمان، أما يهود السامرة فيعتبرون جرزيم مكاناً مقدساً، وقد بنوا عليه هيكلاً يضارع هيكل سليمان في الفخامة والعظمة، وكل فريق يتجه في صلاته وحجه إلى جهة هيكله المقدس، ويعتبر ما عداه باطلاً. وظل الحال كذلك حتى جاء عيسى عليه السلام فسألته امرأة من يهود السامرة قائلة: (آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، فقال لها يسوع: يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب (يوحنا 4: 20 ـ 21).

وكلا الفريقين على خطأ عظيم لأن موسى عليه السلام لم يحدد لليهود قبلة كما القبلة عند المسلمين فقد قال لهم على لسان الله تعالى: (في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك) خروج 20: 24.

واختيار داود جبلاً من جبال القدس مكاناً لبناء المعبد هو اختيار للاستحسان وليس للإلزام، لأن بني إسرائيل كانوا متفرقين فوحَّدَهم، وجعل بعد ذلك أورشليم عاصمة لملكهم. ثم أراد بناء الهيكل ليضع فيه التابوت بدل وضعه في خيمة الاجتماع؛ إذ الحال قد تبدل، فبعدما كانوا في مرحلة التنقل كالبدو الرحل يسيرون بالتابوت والخيمة من مكان إلى مكان ومن قرية إلى قرية أصبح لهم ذا أساس، فرأى داود أن يحل الهيكل محل الخيمة في بناء ثابت مستقر، ولم يلزمهم داود بالتوجه نحوه، ولكنهم عظموا الهيكل لوجود التابوت فيه وطوروا في تعظيمه. ولما غرسه الربانيون والأحبار في عقول العوام صاروا يتجهون إليه باعتبار أن فيه أثر موسى وهارون.

ولا يمكن أن تكون قبلة داود عليه السلام على جهة الإلزام؛ لأن شريعة موسى أمرت اليهود أن لا يسمحوا لنبي منهم يشرع لهم بشيء زائد عما في كتاب

موسى، وقد جاء في التثنية: (ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه) تثنية 34/ 10، وهذا هو الدليل الذي يتذرع به يهود السامرة في رفض معبد داود. والحق معهم لأن داود متبع التوراة وليس هو مشرعاً. وهذا هو نفسه الدليل الذي يلزم به السامريون في البعد عن تقديس هيكل جرزيم؛ لأن موسى لم يقدس أي مكان.

يقول أبو الفتح بن أبي الحسن السامري في هذا الموضع: (جاء زوربيل وجماعته اليهود واجتمعوا جميعاً في حرّان، ووقفوا بين يدي «بدي سوردي» الملك ـ ملك حران ـ ووقع بينهم وبين السامرة مشاجرة على القبلة، وأقبل السامريون بسِفْر المدرج الكبير من هيكل نينوى وذكروا النصوص التي تدل على أن جبل جرزيم هو القبلة. وأخرج زوربيل مدرجاً وادعى أنه مدرج داود وادعى أنه يدل على أن داود قال: إن الأندر في إيليا، هو القبلة ووقع الجدال بينهم قدام الملك)[1].

نظرة اليهود إلى المعبد أيام السبي البابلي:

إن السبي البابلي الذي أجراه البابليون قضى على كثير من تعاليم اليهود ومن مفهومهم للمعبود ورموزه. وأصبح من الواضح أن بضع عشرات من آلاف اليهود الذين ما توانوا يوماً عن عبادة الأوثان وجدوا أنفسهم في الأسر الجماعي لدى البابليين، وكان لابد في هذه الحالة من الانقسام في معتقداتهم، فمنهم من انخرط بعبادة آلهة البابليين كلياً، ومنهم من بدأ يبحث عن المعبود من جديد ليمنحه صفات جديدة أوسع وأكثر أهمية من ذي قبل، وهذا بالطبع يرتبط برمز المعبد، حيث إنهم أخذوا يفكرون بشكل جدي بالبحث عن المعبد المثالي الذي يعيد لهم بعض قيمهم الدينية، ولذلك فإننا سنجدهم يطورون مفهومهم المقدس، ليأخذوا منحىً دينياً سياسياً حيث افتقدوا في الأسر أي رابط مكاني يربطهم بأرض يقدسون عليها إلههم ويمارسون عليها طقوسهم.

---

(1) أحمد حجازي السقا. نقد التوراة أسفار موسى الخمسة ص 129 ـ 130.

في فترة السبي التي دامت خمسين سنة ونيّف. وُجد أنبياء يهود ومصلحون، وكتبة أصروا على منح المسبيين شعوراً بالتقوقع والمحافظة على الأقل من تعاليمهم، وسنرى أن هؤلاء الأنبياء نظروا للمعبد نظرة مختلفة أو متطورة نوعاً ما.

وأول ما يطالعنا من هؤلاء، النبي حزقيال الذي بدأ يتنبأ بعد أسره بخمس سنوات، وتقول التوراة إن الرب كلّمه وقال له: يا بن آدم قم على قدميك أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمة متمردة قد تمردت عَلَيَّ هم وآباؤهم عصوا علي إلى ذات هذا اليوم. 2: 1 ـ 5.

وتتواصل نبوءات حزقيال وصلته بيهوه وفي أحد لقاءاته معه يأمره أن يأخذ موسى ويقص من رأسه ومن لحيته قسماً من الشعر وأن يقسم الشعر المقصوص إلى أجزاء فيحرق جزءاً ويقطع جزءاً بالموسى، ويبدد جزءاً مع الريح ويوضح الإله أنه هكذا فعل بأورشليم ويهوذا، لأنهما رفضتا مشيئة الإله، ولا تتصرفان وفقاً لأحكامه فأصبحتا أكثر كفراً من الوثنيين ولوّثتا بنجاستهما معبده (الإصحاحان 4 و5).

والواقع أن المسبيين بدأوا يشعرون بأهمية الارتباط بأرض ثابتة لهم. ولا شك في أن القدس ستكون هدفهم ما عاشوا فوق أرضها وأكلوا من خيراتها. وعندما يقارنون وضعهم المزري في السبي بوضعهم السابق لابد أنهم سيضعون في مخيلتهم القدس المثالية، القدس التي ترمز إلى وجودهم مجتمعين في ظل ملك منهم.

فمع المرارة مرارة الأسر والسبي، أصبح من المفترض أن يحنوا للماضي، فتصبح القدس بنظرهم الآن أهم بقعة جغرافية في الأرض، لا من حيث قدسيتها بل لأنها رمزت لكيانهم الذي دام ما يقرب من مئتي عام منذ عهد داود حتى سقوط القدس بأيدي البابليين.

ولننظر الآن إلى كيفية تصورهم القدس وهم على ضفاف الفرات في السبي:

جاء في المزمور 136 (على أنهار بابل هناك جلسنا بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف، في وسطها علقنا أعوادنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحاً. كيف نرنم ترنيمة يهوه في أرض غريبة، إن

نسيتك يا أورشليم تُنسى يميني، يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا.

ويتبين أن النبي حزقيال كان شاهداً أيضاً على حوادث الخيانة المقيتة من جهة اليهود بحق يهوه ومعبده. فهو يروي مثلاً أنه دخل بيت الرب، وإذا شكل دبابات وحيوان نجس، وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط على دائرة، وواقف قدامها سبعون رجلاً من شيوخ إسرائيل. ويرى حزقيال نسوة يهوديات جالسات يبكين على تموز (تموز إله البابليين) ويقول: (وفي مكان آخر من البهو الداخلي للمعبد بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل يهوه ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس (حزقيال 8). وقد شاهد هذه الأشياء في معبد يهوه قبل الأسر البابلي.

ومع مرور أيام السبي فقد اليهود المسبيون أية صلة بالإله يهوه وبمعبده في القدس، فراحوا يتعبدون لآلهة تلك الأرض التي هم عليها ساكنون.

ويشخص حزقيال السامرة وأورشليم على هيئة زانيتين تخونان على الدوام زوجهما الشرعي، يهوه مع عشاق آشوريين ومصريين وبابليين. ويرسم هذا النبي لوحات طبيعية للغاية وشهوانية جداً من الفسق (الإصحاح 23).

والملفت للنظر أن كتبة التوراة ينسبون لإرميا وغيره من الأنبياء بعض الكلام المرتبط بمعبد يهوه. الذي يدخلون فيه تصورهم السياسي وأساليبهم في استعطاف القوى وتحريضها لمساعدة اليهود في إعادتهم لإقامة الهيكل الجديد. فنرى مثلاً في كتاب أخبار الأيام الثاني يتم الاستناد إلى نص نبوءة حول أن يهوه «نبه روح كورش ملك فارس وأمره بأن يبني معبد يهوه في أورشليم، والمؤلف ينسب هذه النبوءة لإرميا بينما لا يوجد هكذا مداخلة في كتاب إرميا، بل هي واردة في كتاب أشعيا» 44: 28.

ومن المعروف أن كورش ملك فارس وثني أو هو من أتباع الديانة المجوسية التي تستند إلى عبادة النار وتقديسها، فكيف يمكن لهذا الملك أن يقتنع بأن لإله اليهود بيتاً يجب إعادة بنائه؟.

الواقع أن اليهود ساهموا مساهمة فعالة في مساعدة الفرس للقضاء على الدولة البابلية. وهذا ما جرى، وقد أوردت التوراة في سفر (إستير) قصصاً عن قيام اليهود بذبح عشرات من البابليين المسالمين بعد أن استتب الوضع لصالح الفرس وبعد القضاء على الدولة البابلية.

وفي عصر الفرس صار الهمّ الأكبر لزعماء اليهود الدينيين والسياسيين هو دفع عامة اليهود للذهاب إلى فلسطين وبناء معبد يهوه من جديد. وعلى الرغم من نداءاتهم المتكررة فإن غالبية اليهود رفضت الذهاب إلى فلسطين، والسبب في ذلك، كما ورد في المصادر البابلية، أنهم بلغوا شأواً كبيراً وازدهاراً ضخماً واستحوذوا على المال والتجارة، فلم يكونوا يتحفزون للذهاب إلى فلسطين. وحين أصدر كورش مرسومه القاضي بالسماح لليهود بالذهاب إلى فلسطين وإعمار معبد ليهوه لم يسلك الجميع طريق الذهاب فوراً، بل كان الجزء الغالب من الذين ذهبوا إلى فلسطين من الكهنة، وليس من عامة المسبيين وفي سبيل تحريض الكهنة اليهود لبقية اليهود فقد نافقوا نفاقاً شديداً لكورش الملك الفارسي حتى يدفع باتجاه ذهاب اليهود إلى فلسطين. يقول المؤرخ اليهودي يوسف فلافيوس الذي عاش بعد ذلك بكثير أي في القرن الأول بعد الميلاد، في مؤلفه حول التأريخ لليهود (إن اليهوذيين في بابل أخبروا كورش فور دخوله إلى بابل أن انتصاره قد تم التنبؤ به من قبل نبيهم القديم قبل أكثر من قرنين، وأن ذلك، على حدّ الزعم، جعل كورش يصدر مرسومه حول ذهاب اليهوذيين إلى فلسطين)[1].

على أية حال فإن مكوث اليهود في السبي البابلي عشرات السنين أفادهم جداً بالتعرف على حضارة راقية امتازت معابدها بالفخامة. وقد رأى بعض الباحثين أن مقارنة اليهود بين هذه المعابد البابلية، وبين معبدهم بالقدس ومعابدهم الأخرى قد جعلهم يتطلعون إلى معبد على غرار معابد البابليين.

---

(1) آحو يوسف النبوءات التوراتية ص 192.

وربما كان هنالك الكثير من اليهوذيين الذين بدأ يتهيأ لهم أن يهوه هو مجرد إله صغير مقارنة مع إله بابل الجبار مردوخ، كما تفيد بعض المصادر البابلية فإن بعض اليهود في الجيل الثاني راحوا يتزاوجون مع البابليين ويحملون أسماء بابلية، ويقلدون عادات البابليين، ناسين بالتدرج إلههم، وليس مصادفة أن يهوه لدى إشعيا الثاني ينادي: (هوذا من أجل آثامكم قد بعتكم ومن أجل ذنوبكم طلّقت أمكم، لماذا جئت وليس إنسان، ناديت ولا مجيب، هل قصرت يدي عن الفداء وهل ليس فيّ القدرة للإنقاذ) 50 : 1 ـ 2[1].

وقد يرى بعض الباحثين أن ديانة يهوه قد خطت خطوة جيدة نحو التوحيد الإلهي، وهذه الخطوة سيلحقها خطوة أخرى في تطور مفهوم المقدس لدى اليهود. فبعد المعاناة القاسية التي ذاقها اليهود في بابل أصبحوا يتوقون إلى معبد مثالي ليس مثله على الأرض، فلذلك سنرى أنبياء التوراة في السبي يشددون على التعلق بالمعبد المقدس المثالي الذي تصوروا أنه سيقام في القدس.

بعد مرحلة السبي ومرحلة السماح لليهود بمغادرة بابل توجه بعضهم إلى فلسطين بشكل إفرادي أو بشكل جماعي صغير، وراحوا يتسربون إلى فلسطين حيث كان الوضع فيها في تلك الأثناء مستتباً، والشعب الكنعاني يعيش آمناً، بينما كان كورش يستعد لشن حملة عسكرية كبيرة على مصر التي كانت ترى أي خطر على أرض كنعان يهدد مصالحها وأراضيها. وكانت مصلحة كورش السياسية أن يعيد اليهود سراً وتسرباً إلى فلسطين ليكونوا عوناً له في زحفه على مصر، والواقع أن نصوص التوراة تتغافل تماماً عن وضع القدس وفلسطين أثناء رحيل اليهود مرة أخرى إلى فلسطين، وتصف التوراة الأرض بأنها ليس فيها بشر، وأن اليهود رجعوا إلى القدس دون أي عقبات، وراحوا يعيدون تعمير معبد يهوه، وامتد تشييدهم له عشرين عاماً حسب نص التوراة. أما أين سكان البلد الأصليون. فهم في التوراة مغيبون لا ذكر لهم على الإطلاق، وكأن فلسطين بقيت خراباً سبعين سنة تنتظر عودة

(1) آحو يوسف. النبوءات التوراتية ص 193.

اليهود إليها ليعيدوا تعميرها. لكن التوراة تشير إشارات واضحة إلى اليهود الذين لم يسبوا، وتقول عنهم إنهم عرفوا بالوثنية وأنهم نسوا نهائياً معبد القدس..

لم يستقر الوضع للفرس في فلسطين والساحل السوري، ففي سنة 332 ق.م استولى الإسكندر على فلسطين ودخل القدس. ومن طبيعة الشخصية اليهودية أن يوالي اليهود القوة الصاعدة على مسرح الأحداث. فبعد أن أعانوا الفرس ضد بابل انقلبوا ضدهم عندما جاء الإسكندر، وقد تحدث عن دخول الإسكندر القدس المؤرخ اليهودي يوسيفوس المتوفى عام 100 ق.م في تاريخه فقال (رحل الإسكندر متوجهاً إلى أورشليم، فلما سمع اليهود بمجيئه إليهم خافوا منه، فلما علم الكاهن الأكبر جمع اليهود الذين هناك وأمرهم فصاموا وصلوا وتصدقوا وقصدوا الله عز وجل، وسألوه الكفاءة، ثم خرجوا يستقبلون الإسكندر لما قرب من المدينة وعظيم الكهنة قدامهم، ثم إن الكاهن الأكبر لقي إسكندر بالإكرام والإجلال ومضى معه حتى أدخله القدس[1].

وكما تَسمَّى اليهود إبّان الحكم الفارسي بأسماء فارسية، فإنهم عندما دخل الإسكندر الهيكل، على حد قول التوراة، قال الكاهن متملقاً: (طلبت من جميع الكهنة أن يسموا كل مولود ذكر يولد لهم في هذه السنة إسكندر، وأن يدعوا لك كلما دخلوا الهيكل[2].

ولما حكم أنطيوخس الرابع 175 ـ 163 ق.م ضغط على اليهود ليتركوا تقاليدهم. عاملهم شر معاملة فهدم أسوار القدس ودك حصونها، ونهب الهيكل وذبح الخنازير على مذبحه، ووضع عليه تماثيل يونانية. ثم في عام 104 ق.م احتل السلوقيون القدس مرة أخرى وهدموا حصونها.

وفي عام 63 ق.م هاجم القائد الروماني (بومبي) القدس، فهدم أسوارها وحصونها ثم في عام 54 ق.م قام القائد الروماني (كراسس) بنهب الهيكل وأخذ كل خزائنه.

---

(1) تاريخ يوسيفوس ص 27 ـ 28 نقلاً عن كتاب مصطفى الدباغ بلادنا فلسطين ص 55.

(2) المصدر السابق.

وفي عام 40 ق. م تمكن الفرس من الاستيلاء على بلاد الشام وضمنها القدس، لكن الرومان تمكنوا بعد سنتين أي عام 38 ق. م من طرد الفرس واستعادة البلاد تحت الاستعمار الروماني.

وحكم هيرودس القدس عام 37 ق. م وقد جدد في بناء هيكل القدس إرضاء لليهود الذين كانوا يبغضونه. ولم يعمر هذا الهيكل طويلاً فقد هدمه الرومان يوم تدميرهم القدس سنة 70م.

ويقول المؤرخون إن السيد المسيح عليه السلام، ولد في آخر سنة من حكم هيرودس. وبعده حكم الرومان القدس حكماً مباشراً. ومن ولاتهم بيلاطس النبطي الذي حدثت وقائع السيد المسيح في عهده.

ونلاحظ في غالبية المدونات التاريخية إغفالاً واضحاً للسُّكّان الكنعانيين العرب الذين كانوا يعيشون في القدس وبقية البلدان والقرى الفلسطينية.

وتورد بعض المصادر أن مدينة غزة استعصت على الإسكندر وجيشه، فحاصرها طويلاً ثم دك أسوارها وأجرى فيها مذبحة مروّعة، وكانت مدينة غزة فلسطينية السكان والحكم، ولم يستطع اليهود ولا في أي حقبة زمنية احتلالها.

والانتقال من حكم الفرس إلى حكم اليونان لم يغيّر شيئاً من الأحداث في فلسطين باستثناء مقاومة مدينتي صور وغزة الزحف المقدوني. لقد عانى الكنعانيون الكثير من الفرس واليهود المتعاونين.

ويرى الباحثون أن اليهود في أثناء الحقبة اليونانية توجهوا من القدس وفلسطين إلى مصر ـ الإسكندرية حيث تمت هناك أول ترجمة للتوراة إلى اليونانية.

أما بالنسبة للأماكن المقدسة التقليدية للقبائل (شكيم وبيت إيل وشيلوه) كانت في الشمال، ولهذا كان اتخاذ أورشليم مركزاً للسلطة وعاصمة ومقراً لتابوت العهد بقرار سياسي بحت من داود قد بدا في نظر سكان السامرة إلغاءً للتقاليد، واغتصاباً للسطلة من قبل داود المنتمي إلى يهودا، وقد عمل سقوط السلوقيين بعد هزيمتهم أمام الرومان على حرمان أورشليم من دعم الملك

أنتيخوس، فاستغل السامريون ذلك لإحداث انقسام حقيقي جِدِّي، فراحوا يمارسون عبادتهم ليس في أورشليم بل في الجبل القديم المقدس (جرزيم بدءاً من حكم انتيخوس الرابع، ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى السامريين من قبل كهنة أورشليم على أنهم جاحدون مدنّسون)[1].

وتؤكد النصوص اليونانية المكتشفة في الأردن أن معظم سكان فلسطين أيام الرومان كانوا من العرب، وهناك مهاجرون آخرون قدموا مثل سائر الموجات السابقة منذ ثلاثة آلاف عام من جزيرة العرب، فأقاموا مملكة الأنباط في القرن الرابع ق. م.

وحين بدأ السيد المسيح دعوته للعودة إلى التوحيد غضب كهنة اليهود، وصب المسيح جام غضبه على كهنة الهيكل (يقول إنجيل لوقا 19/ 45 ـ 47) ولما دخل الهيكل ابتدأ يُخْرِج الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه قائلاً لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلوات وأنتم جعلتموه مغارة لصوص، وكان يُعَلِّم كل يوم في الهيكل، وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه، ولم يجدوا ما يفعلون لأن الشعب كله كان متعلقاً به يسمع منه.

وفي إنجيل متى 21/ 12 و13 (ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص).

هذا ولا بد أن الصيارفة وباعة الحمام وغيرهم قدَّموا الرشوة للكهنة للحصول على محلات ضمن حدود الهيكل المقدسة.

فمن الواضح أن ما يسمى الهيكل ظل على حاله منذ أيام سليمان كما تقول التوراة. لقد كان مكاناً تعبد فيه الآلهة الوثنية، ثم صار مكاناً لجماعة اللصوص وباعة الحمام. وهذا ما يؤكد ما قلناه من أن هذا الهيكل ليس له صلة بالإله الواحد، بل هو مكان عبادة للبشر صنعوا فيه الأوثان والأصنام التي تمثل آلهة الشعوب آنذاك.

---

(1) روجيه غارودي. فلسطين أرض الرسالات السماوية ص 101 ـ 102.

وقد دمرت أورشليم تدميراً كاملاً، وقد تم هذا وفقاً لتحذير السيد المسيح (ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل فتقدم تلاميذه لكي يُرُوه أبنية الهيكل فقال لهم يسوع ما تنظرون، الحق أقول لكم إنه لا يُترك ههنا حجر على حجر لا ينقض).

وبقيت أورشليم خربة مدة طويلة لا يسكنها إلا حامية رومانية، ثم دمرت المدينة نهائياً زمن هدريان وحرث موقعها الذي كانت قائمة عليه، وقتل عدداً كبيراً من اليهود وسبى عدداً يتجاوز عدد القتلى، ثم منعهم من دخول القدس والسكن فيها بل من الدنو منها، وقد سمح للمسيحيين أن يقيموا فيها على ألاّ يكونوا من أصل يهودي، وسمى المدينة إيليا كابيتولينا.

يقول ابن البطريق المؤرخ القاهري حول تدمير هدريان بيت المقدس: وهذا خراب بيت المقدس، فمن اليهود من هرب إلى مصر وإلى الجبال والغور، وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودي، وأن تقتل اليهود ويستأصل جنسهم، وأن يسكن المدينة اليونانيون، وأن تسمى باسم الملك إيليا فسميت بيت المقدس منذ ذلك الوقت إلى هذه الغاية مدينة إيليا، فسكنها اليونانيون وبنوا على باب الهيكل الذي يقال له البهاء برجاً، وصيروا فوقه لوحاً كبيراً وكتبوا اسم الملك إيليا.

وقد أمر الملك الإمبراطور ببناء هيكل (للمشتري) على أنقاض هيرودوس ونصب تمثاله بالقرب من الصخرة المشرفة.

وعندما تبنى الإمبراطور قسطنطين المسيحية 306 ـ 337 جعل الديانة المسيحية هي الرسمية في البلاد، وجاءت والدته هيلانة إليها عام 326م للعثور على مواقع الحوادث المهمة التي حدثت للمسيح، ولبناء الكنائس تذكاراً لها. وأمرت بهدم هيكل المشتري والتماثيل التي أقامها هدريان، وقامت ببناء كنيسة القيامة التي يعتقد المسيحيون أنها ضمت قبر السيد المسيح قبل رفعه إلى السماء، وقد تم تدشينها عام 335م.

ويقال أن كنيسة العذراء بنيت عام 529م في موقع الهيكل. وقد بنيت كنائس كثيرة في ذلك العهد.

بقيت القدس متمتعة بسلام طويل منذ طرد اليهود منها عام 135 إلى سنة 614، وهي السنة التي هاجمت فيها جيوش الفرس الإمبراطورية الرومانية فاحتلت بلاد الشام، ودخلت القدس عام 614 بعد أن انضم إليهم أكثر من 20 ألف يهودي اجتمعوا من عدة بلاد، وأشعلوا النيران بكنيسة القيامة وسويت على الأرض. وكان لليهود اليد الطولى في الخراب والدمار والنهب والسلب والتدمير. وقدر عدد القتلى من المسيحيين بالقدس أكثر من 60 ألف نسمة دفن نحو 500 ـ منهم في (ماملا)، ولم يُذكر أي تشييد لما يسمى الهيكل، ثم عادت القدس إلى الرومان عام 626. وبقيت هكذا مدة عشر سنوات أي إلى عام 636 عندما زحف المسلمون وحرروا القدس وفلسطين وسائر بلاد العرب من الاستعمار الروماني..

لقد بدا واضحاً أن ما يسمى الهيكل، وهو الهيكل الثاني الذي بني بعد مجيء اليهود إلى فلسطين من السبي البابلي، لم يعد له أثر في الوجود طوال أكثر من خمسمائة عام؛ أي طوال فتح الحكم الروماني واستعماره فلسطين. وإذا أضفنا أربعة عشر قرناً في ظل الحكم الإسلامي منذ انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك أصبح لدينا ما يقرب من ألفي عام لا وجود فيها لأي أثر من آثار ما يسمى الهيكل أو معبد يهوه، وبعد ألفي عام من الاندثار وعدم الوجود من يستطيع أن يثبت أن هنا في بيت المقدس كان يقبع ما يسمى هيكلاً لليهود؟

أما وضع القدس والمعابد فيها في ظل الحكم العربي الإسلامي فنجعله في بحث لاحق؛ لأنه يرتبط بالرؤية الإسلامية لبيت المقدس المستندة على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.